

أَلْفَاظُ الْحَضَارَةِ بَيْنَ الْعَامِيِّ وَالْفَصِيحِ

د. أحمد شفيق الخطيب

رئيس دائرة المعاجم/بيروت - مكتبة لبنان

حَضَارِيّ - يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً مِنْ الْحَضَارَةِ تَبَعاً لَخَبْرَةِ السَّامِعِ وَثِقَاتِهِ وَبَيْتِهِ.

لَفْظَةُ «خُبْز» مَثَلاً عَلَى بَسَاطَتِهَا وَإِنْ عَنَتْ «مَا يُصَنَعُ مِنَ الدَّقِيقِ الْمَعْجُونِ الْمُنْضَجِ بِالنَّارِ» لِجَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا تَحْمِلُ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ فِي ثَنَائِهَا لِمُخْتَلِفِ فَنَائِهِمْ وَبَيْتَاتِهِمْ.

فَهَذَا الدَّقِيقُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الشَّيْلَمِ أَوْ الشَّعِيرِ أَوْ الدُّخَنِ أَوْ أَنْوَاعِ الدُّرَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ أَوْ الْقَمَحِ، أَوْ أَيِّ مِنْهَا مَعَ الْقَمَحِ، وَنَارٌ إِنْضَاجُهُ قَدْ تَكُونُ مَوْقِداً وَقَوْدُهُ الْقَشُّ أَوْ الْحَطْبُ أَوْ الْبِتْرُولُ أَوْ الْغَازُ أَوْ الْكَهْرِبَاءُ أَوْ الْمَوْجَاتِ الصُّغْرِيَّةِ (الْمِكْرُووَيْف).

وَقَدْ يَكُونُ الْخُبْزُ صِنْفاً مِنْ عَشْرَاتِ أَنْوَاعِهِ - مِنْ خُبْزِ الصَّاحِ الرَّقِيقِ أَوْ الْبَلَدِيِّ السَّمِيكِ أَوْ الْإِفْرَنْجِيِّ الْمُقَوَّلِبِ، وَقَدْ يَكُونُ صُنْعٌ فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي مَخْبِزٍ صَغِيرٍ أَوْ فِي مَصْنَعٍ ضَخْمٍ مُجَهَّزٍ بِالْمَعْدَّاتِ وَالآلَاتِ فَلَا تَمَسُّهُ يَدُ إِنْسَانٍ!

وَقَدْ يَكُونُ مُعَالَجاً بِالْخَمَائِرِ أَوْ بِدُونِهَا، مُعَزَّزاً بِالْفَيْتَامِينَاتِ أَوْ بِجَوَامِدِ اللَّبَنِ، أَوْ يَكُونُ مِنَ النَّوْعِ الْخَاصِّ بِالْحِمِّيَّةِ أَوْ مَرَضِ السُّكْرِيِّ. وَلَعَلَّ اللَّفْظَةَ تُجْبَلُ فِي خَاطِرِ سَامِعِ الْأَضْطِرَابَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ الَّتِي نَجَمَتْ بِسَبَبِ الْخُبْزِ أَوْ تُعِيدُ إِلَى ذِهْنِ آخَرَ مَصِيرَ رَفِيقِ يَوْسُفِ الصَّدِيقِ فِي السُّجْنِ وَالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً﴾.

وَمِثْلُ هَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ فِي لَفْظَةِ «قِمَاش» مِنْذُ لَيْفِ الْقَنْبِ حَتَّى أَلْيَافِ عُصَابَاتِ الرَّايُونِ، وَفِي «سِيْلَاح» مِنْذُ بَلْطَةِ الْحَجَرِ الْمُشْدَبِ حَتَّى صَوَارِيخِ

فِي مُعَالَجَةِ مَوْضُوعِ «أَلْفَاظِ الْحَضَارَةِ بَيْنَ الْفَصِيحِ وَالْعَامِيِّ» يُفْتَرَضُ أَنِّي أُعَرِّفُ أَلْفَاظِي بَادِيءِ ذِي بَدءِ.

الْحَضَارَةُ - يَقُولُ الْمُعْجَمُ الْوَسِيطُ - هِيَ مَظَاهِرُ الرُّقِيِّ الْعِلْمِيِّ وَالْفَنِيِّ وَالْأَدْبِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ (وَأَضِيفَ إِلَيْهَا التَّقَانِي) فِي الْحَضَرِ. وَلَفْظَةُ «الْحَضَر» يُحَدِّدُهَا الْمُعْجَمُ نَفْسُهُ بِأَنَّهَا تَشْمَلُ الْمُدْنَ وَالْقُرَى وَالرَّيْفَ.

يَعْنِي: الْحَضَارَةُ تَشْمَلُ كُلَّ مَا حَوْلَنَا: إِنْ كَانَ فَنْجَانٌ قَهْوَةٌ مِنْ بَكْرَجٍ عَادِيٍّ أَوْ كَهْرِبَائِيٍّ، أَوْ كَأَسَ مَاءٍ بَارِدٍ مِنْ جَرَّةٍ أَوْ ثَلَاجَةٍ، أَوْ كَانَ تَصَفَّحٌ جَرِيدَةٌ صَبَاحاً، أَوْ مَطَالَعَةٌ كِتَابٍ فِي جَلْسَةٍ هَادِئَةٍ مَسَاءً عَلَى نُورِ قَنْدِيلٍ كَارٍ أَوْ غَازٍ أَوْ كَهْرِبَاءٍ، أَوْ كَانَ الْاسْتِطْبَابُ بِوَصْفَةِ أَعْشَابِيَّةٍ أَوْ مَضَادِّ حَيَوِيٍّ، أَوْ كَانَ ثَوْباً مُطْرَزاً فِي الضَّيْعَةِ أَوْ مُقَصَّباً فِي بِيوتَاتِ بَارِيْسِ، أَوْ كَانَ سَفْرَةً فِي قَافِلَةٍ أَوْ قَطَارٍ أَوْ سِيَارَةٍ أَوْ طَائِرَةٍ، أَوْ كَانَ مُتَابَعَةً مُبَارَاةٍ فِي كُرَةِ الْقَدَمِ عَلَى الرَّادِيُو، أَوْ مُرَاقِبَةً عَوْدَةِ الْمَكُوكِ الْفَضَائِيِّ بِقَمَرٍ اسْتِطْلَاعِيٍّ ضَخْمٍ تَائِهٍ عَلَى التَّلْفِزْيُونِ، أَوْ... أَوْ إِلَى مَا هُنَالِكَ - مِمَّا كَانَ أَوْ سَيَكُونُ!

يَعْنِي: حَضَارَتُنَا هِيَ كُلُّ مَا حَوْلَنَا، كُلُّ اخْتِبَارَاتِنَا، كُلُّ وَسَائِلِ الْعَيْشِ. وَالنَّقْلِ وَالِاتِّصَالِ عِنْدَنَا، كُلُّ مَصَانِعِنَا وَ مَصْنُوعَاتِنَا وَمُخْتَبِرَاتِنَا، كُلُّ مَطَابِعِنَا وَمَطْبُوعَاتِنَا وَإِذَاعَاتِنَا، كُلُّ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُنَا أَوْ يَجُولُ فِي أَفْكَارِنَا.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلِقِ، فَإِنَّ كُلَّ لَفْظٍ هُوَ لَفْظٌ

عَصْرُ النَّجْمِ، وفي «عجلة» منذ قَطَعَ أَوَّلُ إِنْسَانٍ
جِدْعَ شَجَرَةٍ ضَخْمَةٍ فَسَيَّرَ عَلَيْهِ عَرَبَةً حَتَّى حَرَّكَتْ
دَوَالِبُ سَلِيلِهِ مَكَانَاتِ الثَّوْرَةِ الصَّنَاعِيَّةِ وَأَطْرَتِ
العَرَبَاتِ القَمْرِيَّةِ. ومثله يُقال أيضاً في لفظه
«انتفاضة»⁽¹⁾ مذ ثار أَوَّلُ حُرٍّ على مُستعبديه حتى
انتفاضة الشعب العربي في الأَرْضِ المُحتلة على
قَاهِرِيهِ، وفي آلاَفِ الألفاظ العريقة الأخرى.

وإنك إذا ما اخترت لفظاً من المُستجدات
التقنيَّة كلفظة «راديو» مثلاً فإن مَفهومها الحضاري
قد يَخْتَلِفُ بالقَدْرِ نفسه. فهي لِبَعْضِ الناسِ جِهَازٌ
يأتيهم بِنَشْرَاتِ الأَخْبَارِ وما يطلبه المُستمعون — بيِّنا
يرى فيها آخرون حَلْقَةً بين التلِفونِ والرَّادارِ، جِهَازاً
مُعقداً تتلقَّى مَقُومَاتُهُ ومُضَمَّنَاتُهُ وصِمَامَاتُهُ ومُرَشَّحاتُهُ
ومكروفوناته التوجَّاتِ الصوتيَّةِ المُبتعثة من محطة
البَثِّ مُحَمَّلَةٌ على الأمواج الكهرومغنيطية عَبْرَ الأثيرِ،
فَتَحَلُّلُهَا وتُرَشِّحُهَا وتَقُومُهَا وتُضَخِّمُهَا حَسَبَ
الطَّلَبِ أنعاماً شَجِيَّةً أو كلاماً بيِّناً سائغاً للسَّامعين.

وقد تُجِيلُ اللفظة إِيَّاهَا في خَاطِرِ السَّامِعِ
جُهُودَ العُلَمَاءِ والخَبْرَاءِ الَّذِينَ أَدَّتْ إِبْدَاعَاتُهُمْ إلى هَذَا
الإِنجَازِ الرَّائِعِ — مِنْ فَرَادِي وَمَكْسُوبِلِ حَتَّى هِرْتِزِ
وَفِلْمَنْغِ وَمَارْكُونِي، أو تُعِيدُ إلى ذِهْنِهِ الخِدْمَاتِ الجُلِيَّةِ
التي يُؤَدِّيها الرَّادِيو لِنَبِيِّ البَشَرِ في البَرِّ والبَحْرِ والجَوِّ.
أليسَ هُمْ يَقُولُونَ: الألفاظُ تُورِّخُ الحضارةَ؟
ثمَّ إنَّ الألفاظَ نَفْسَهَا قد تفاعلَ مع التَعابِيرِ
فَتَكْسِبُهَا معانِي أو تَعَبُّهُهَا مَفَاهِيمَ حَضَارِيَّةً مُخْتَلِفَةً:
فمفهومُ حَطَمِ فِي «حَطَمَ الرَّجُلُ السِّيَاحَ»،
غَيْرُهُ فِي «حَطَمَ الإِنْسَانُ الذَّرَّةَ».

وتعبيرُ «شروق الشمس» مفهومٌ فلكيٌّ شِعْرِيٌّ
جَمَالِيٌّ أَلْفَناءُ، لَكِنَّ التَّعبِيرَ «شروق الأَرْضِ» مَفْهُومٌ
حَضَارِيٌّ طَارِحٌ لَمْ يَخْتَبِرْهُ بَعْدُ إِلَّا نَزْلاءُ المَرَكَبَاتِ

الفضائيَّةِ.
وهكذا قُلَّ في آلاَفِ التَعابِيرِ التي أُكْسِبَتْهَا
الحضارةُ معانِي ومَفَاهِيمَ مُحدَّدةً، أو إنَّها صِيغَتْ
فِعْلاً لِتَحْمَلِ مَفَاهِيمَ مُعيَّنةً لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلِ مألُوفَةً
مثل:

حَرْبٌ بارِدةٌ

غِطَاءٌ جَوِّيٌّ

غُرْفَةٌ عَمَلِيَّاتٍ (بالمعنى الطَّيْبِيِّ أو العَسْكَرِيِّ)

حِسَابٌ جَارٍ

سَلَّةٌ عَمَلَاتٍ... الخ

وغنيَّ عن القولِ أَنَّهُ كَلِمًا تَقَدَّمَ الإِنْسَانُ فِي
سَلْمِ الحضارةِ إِزْدَادَاتِ الألفاظِ والتَعابِيرِ والأفكارِ
اللازِمَةُ لِلتَّفَاعُلِ مَعَهَا والمُرْتَبِطَةُ بِهَا — كَوْنِ اللُّغَةِ
مِرآةً تَعكِّسُ أَحْوالَ النَّاسِ وَأَوْضَاعَهُمْ وَوَأَقْعَهُمْ
وَاسْتِجَابَتَهُمْ لِمُتَطَلِبَاتِ الحضارةِ المُتَجَدِّدةِ
وَمُسْتَلزَمَاتِهَا.

اللغة العربية وألفاظ الحضارة

اللغة العربية عُرِفَتْ مُنذُ دُونَتِ لُغَةِ فَدَّةٍ بَيْنَ
اللُّغَاتِ غِنًى وَفِصَاحَةً وَمَقْدَرَةً على التَّعبِيرِ وَوَفَاءً
بِحَاجَاتِ القَوْمِ فِي نِطاقِ بِيئَتِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ وَتَعَامُلِهِمْ فِيهَا
بَيْنَهُمْ مَحَلِيًّا وَمَعَ البِيئَاتِ الأخرى مِنْ حَوْلِهِمْ. وَقَدْ
أَهْلَهَا ذَلِكَ لارتقاءِ قِمَّةِ البَيانِ الإِنْسَانِيِّ فِي القُرْآنِ
الكَرِيمِ.

وما جَاءَتْهُمِ العَرَبِيَّةُ الألفاظُ الحَضَارِيَّةُ
كَمُشْكِلَةٍ، عَلِيٍّ مَا نَعْلَمُ، إِلَّا فِي تَجْرِبَتَيْنِ:
التَّجْرِبَةُ الأُولَى كَانَتْ عِنْدَما دَخَلَ العَرَبُ
التَّارِيخَ تَحْتَ رَايَةِ الإِسْلامِ. وَكَانَتْ الأُمَّمُ التي شَمَلَتْهَا
إِمْبِراطُورِيَّتُهُمْ فِي الشَّامِ والعِراقِ وَمِصرَ وَفارسَ قَدْ
قَطَعَتْ شِوْطاً بَعِيداً فِي مِضْمَارِ الحضارةِ. فَأَقْبَلَ
العَرَبُ على ثَرَاثِ وَعِلْمِ تلكِ الأُمَّمِ فَنَقَلُوهَا وَاسْتَعْمَلُوهَا
بِهَا وَزَادُوا فِيهَا. وَشَاهَدُ اسْتِيعَابَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

(1) هذه اللفظة بِمَنْطوقها العربي أصبحت من المُستجدات اللغويَّة في صُحفِ العالمِ كافَّةً وفي سائرِ وسائلِ إعلامِهِ. ويُدرِّجُها سِجِلُ لونغمان
للألفاظ المُستجدة في اللغة الانكليزية الصادر عام 1989 ضمن ألفاظِهِ في مادة intifada.

القرآن الكريم نفسها التي تحوي كلماتٍ من جميع اللهجات العربية ومن الإغريقية والفارسية والإثيوبية كما هو معلوم.

أضيف إلى ذلك أن تلك المُجابهة ظلت تدريجيةً طبيعيةً، استغرقت عملية النقل والتطور فيها قرابة ثلاثة قرون.

أما التجربة الثانية الحالية فقد كانت المُجابهة فيها بالغة الحدة — لا فقط بفعل الفارق الحضاري الانقلابي المذهل على كل المستويات وفي شتى المجالات، ولا بفيض المصطلحات والأفكار والمسميات التي رافقت، بل أيضاً بالتسارع الهائل في سبل المخترعات والمكتشفات والمسميات والمصطلحات التي ظلت تندفق بتسارع يُريك حتى أهل الصنعة وتقنيها وعلماءها باللغة التي تُخلق بها تلك المسميات. وهي مسميات، إن كان يُمكن تجاهل الكثير منها أو تركه لأهل الاختصاص، فإن الكثير منها مُشابهٌ مُتحابك مع شؤون الناس الحياتية والثقافية والعلمية في مختلف مجالاتها ومستوياتها. والذين عانوا تعليم العلوم مثلي في هذا الجيل لحظوا ولا شك أن الكثير الكثير من المسميات الأساسية في الكيمياء والفيزياء وعلم الأحياء التي يُعلمون، لم تكن معروفة أيام درسوها هم في الجامعات، وأنها اليوم أكثر بكثير مما هو مُدَوّن في الكتب التي يُدرسون.

وكوني لا أملك إحصائيات دقيقة حول حجم هذه المُجابهة المُصطلحية وتناميها وما يدخل المعجم اللغوي منها في مرجع عربي ألبأ إلى إحصائيات لغة هي مصدر الكثير من مستورداتنا الحضارية — لا في مجال التقنيات والمنتجات فقط بل في مجالات الفكر والثقافة أيضاً.

المعجم الأشهر في اللغة الانكليزية اليوم هو معجم وبستر الدولي الثالث الذي صدر عام 1961 وبه على ذمة مُحررة 450 ألف مدخل منها 200 ألف ذات طابع علمي أو تقني لا أدري إن كان قد

للحضارات الفارسية واليونانية والهندية وهضمها وتجاوزها في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والفكرية والعلمية، أنها سرعان ما أصبحت لغة العلم والحضارة في سائر أرجاء العالم المعروف حينئذ — عنها يُترجمُ ومنها يُقتبسُ.

ثم ران على أمة العرب — وبالتالي على اللغة العربية — سبات القرون الخمسة.

وكانت التجربة الثانية — التي لا نزال في مُعتركها — حين جابهت العربية فيضاً هائلاً من الأفكار والمسميات التي رافقت انفتاحنا على العرب، أو على الأصح، انفتاح العرب علينا — فجاءتنا تقانة الحرب والفنون الهندسية والطبية بدءاً بحملة نابليون على مصر وبعثات محمد علي إلى مختلف الأقطار الأوروبية. وامتداداً بالبعثات التبشيرية الأمريكية والفرنسية في بعض سوريا ولبنان. واحتدمت المُجابهة خلال القرن العشرين الذي تميّز، كما هو معروف، بازدياد أسباب الحضارة ازدياداً مُذهلاً في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وشتى المهارات التقانية الحياتية المتعلقة بالطعام والسكن والصحة والأمن والحرية والبقاء. لقد جهدت اللغة العربية خلال هذه التجربة، وحوربت وتعثرت، لكنها عادت تُنتعش. وهي اليوم، بفضل جهود الرواد الخالدين والعاملين المُخلصين والمُجمعين، في سبيلها إلى النجاح والإبداع إن شاء الله.

والذين يتهمون العربية بالتقصير اليوم لأنها لم تستجب للتجربة الحالية كما استجابت للتجربة الأولى لعلمهم يتجاهلون بضعة عوامل، منها — أولاً: في التجربة الأولى لم تُجابه اللغة العربية فارقاً حضارياً حاداً كما يتوهم الكثيرون. فالعرب في الجاهلية، وإن كانوا جاهلين دينياً، لم يكونوا جاهلين حضارياً. فلم تكن حضارة الروم والفرس والهند مفاجئة للعرب — غساسنة ومناذرة شمالاً، أو يمانيين وخليجين جنوباً. ولا برهان أنصع على ذلك من لغة

دخل معاجمنا نصفها. وفي الملحقات التي ظلّ يُصدرها مُحَرَّرُو هذا المعجم كُلَّ خَمْسِ سنوات، وتابَعَهُم فيها مُحَرَّرُو دار بارنِهَارَتِ المُخْتَصَّة بِمَعْجَمَةِ المُسْتَجَدَاتِ فِي الانكليزية، بَلَغَ مُعَدَّلُ هَذِهِ الإِضَافَاتِ خَمْسَةَ آفِ مَادَّةٍ فِي كُلِّ مُلْحَقٍ — عِلْمًا أَنَّ هَذِهِ المُسْتَجَدَاتِ لَا تُشْمَلُ المُصْطَلِحَاتِ الفيزيائية أو الهندسية أو الالكترونية العالِية الاختصاص ولا أسماء النباتات والحيوانات التي لا تُهْمُ غَيْرَ البيولوجيين وكلها يكادُ يفوق الحَصر، ولا الرِّطاناتِ التي يَستخدِمُها التقانيون والمُخَبِّرُونَ فيما بَيْنَهُم، بل هي خَمْسَةُ آفِ لَفْظَةٍ حَضَارِيَّةٍ ثَابِتَةٍ مُسْتَقَرَّةٍ، تُهْمُ عَامَّةُ المُثَقِّفِينَ.

ثانياً: الذي نعرفه أَنَّ العِلْمَاءَ والمُتَرَجِمِينَ المُسْتَعْرِبِينَ والعَرَبَ الَّذِينَ نَقَلُوا «التكنولوجيا» فِي التجربة الأولى لم يعترض حركتهم أحدٌ فِي التوليد والتعريب. فهُم على غزارةِ مَادَّةِ العَرَبِيَّةِ ومُرُونَتِهَا وصِيغِهَا ومزايها الوضعية نَحْتًا واشتقاقًا ومجازًا، كانوا إِذَا أعوزتْهُمُ السَّبِيلُ ينقلون اللفظَ الإغريقيّ أو الهنديّ أو الفارسي بلفظه — تشهدُ بِذَلِكَ الأعمالُ الخالدة لابن سينا والكندي والرازي وابن الهيثم والفارابي والخوارزميّين⁽²⁾ والبستاني والسيروني وغيرهم. ولسان حالهم يقول «أَيُّ لَفْظٍ فصيحٍ إِذَا دخل لغة العلم»⁽³⁾.

ولئن كان المترجمون الأوائلُ وجَّههم من الأعاجمِ قد عَرَّبُوا عَجْزًا، كما يُقال، فإني لا أريد أن أعتقد أن عبقرية ابن سينا كانت تعجز عن تخليق

مقابلاتٍ تُترجمُ مثيلات كيلوس وكيروس ونقرس وقولنج — ولا الكندي عاجزٌ عن توليد ألفاظٍ تُقابلُ مثيلات أنولوطيقا وربطوريقا وبوليطيقا، وهو الذي أجادَ شَرَحَها فِي رسائله، ولا البيروني والخوارزمي وابن الهيثم قاصرون عن استنباط بديلاتٍ لأمثال زيغ وجيومطري وأريثاطيقا وأسترونوميا.

وفي يقيني أَنَّهُم إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ رَغْبَةً فِي الدِّقَّةِ ومُرَاعَاةِ لِلْحِفَافِ عَلَى الصَّلَةِ العِلْمِيَّةِ مع سائر اللغات. وَهُم كانوا إِذَا ما رأوا أَنَّ مُصْطَلِحًا لا يُؤدِّي معناه كَمَلًا عَدَلُوا عَنْهُ إِلَى ما هُوَ أَدَقُّ وَأَضْبَطُ وَأَذوق، ولم يُبالوا أَنَّ يكونَ ذاكُ المُصْطَلِحُ عَرَبِيًّا أصيلاً أو مُسْتَعْرَبًا دَخِيلاً.

هذا ولم يكن كتابُ العَرَبِيَّةِ آنذاك فِي إنجازاتهم الرائعة يتورعون عن استخدام ما كان يجري على ألسنة العامة مُولِداً أو دَخِيلاً مِمَّا يَجِدُونَ فِيهِ وَضوحًا وبياناً وحيويةً ودقةً أداءً. وشواهدُ ذَلِكَ نَقْرَأُها فِي بُخْلَاءِ الجاحِظِ وحيوانه، كما فِي أغاني أبي الفرج الأصبهاني وعقيد ابن عبد ربّه ووفيات ابن خلكان ونشوار التنوخي وغيرها.

فِي التجربة الثانية، والعربية لما تستردَّ صحتَها ولا مُرونتَها بَعْدَ غَفْوَةِ وجمود القرون الخمسة، بدأت حركة نُقلِ العُلومِ على غرار ما فعله السلفُ — بالترجمة حيناً، وإحياء المُولداتِ والتوسُّعِ فِي تخليقِ مثيلاتها بالقياسِ حيناً، والاستعانة بألفاظِ أهلِ الصنعةِ حيناً وباللجوءِ إِلَى التعريبِ حيناً — فِي نطاقِ منهجيةِ تَبْلُورِثِ فِي بيانِ مُحَمَّدِ حَفْنِي ناصفِ يَوْمَ افتتحَ نادي دارِ العُلومِ فِي مَطَّلَعِ هَذَا القرنِ. وقد

(2) محمد بن موسى (ت. 850) الرياضي والفلكي والجغرافي المشهور. ومحمد بن أحمد (ت. 977) صاحب «مفاتيح العلوم» أقدم دائرة معارف فِي مصطلحات العلوم.

(3) تُورد مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ص 11، جزء 23 - 24، قولاً للبيروني بما نصه: «إن الكلام الفصيح لا مكان له فِي الكتب العلمية». والذي يقصده أبو الريحان هنا بالطبع هو الفصاحة البلاغية بمفهوم ابن الأثير وعبد القادر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، وليس بمعنى الوضوح ودقة الدلالة الذي نقصده هنا.

لاقت تلك المنهجية تأييداً عارماً منذ أيديها ووسّعها وقّعدها مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي تأسس بعد ربع قرن من إلقاء ذلك البيان.

لكن فريقاً من الغيارى على صفاء العربية من المُعَرَّبَات والعاميات، يحافظ القداسة التي تُسبغها كلنا عليها دينياً أو بالحماسة العاطفية التي لا نشاطرهم إياها دوماً، راحوا ينادون لا برفض العامي والمُعَرَّب فقط بل أيضاً برفض المولّدات. وهو أمر تعود جذوره إلى إحجام مُدوّنِي المعاجم حتى الضخمة منها، كلسان العرب والقاموس المحيط، عن تدوين ما يتلفظ به عامة القوم ولا حتى ما استخذه المولّدون الفصحاء منهم.

لقد أصرّ الصفاويون على التقيد بترجمة المُسمّيات ووضع المُصطلحات بألفاظ عربية النّجار بدعوى أن في لغتنا لكل شيء مُقابلاً — فهي بكلمات محمد عزة دروزة وكأنه يبتثّر أبيات⁽⁴⁾ شاعرنا الكبير حافظ إبراهيم، «المحيط الشامل كلّ منتجات الحضارة — ما ظهر منها وما سيظهر. فما على الباحثين إلا الغوص في هذا المحيط لاستخراج دُرره»⁽⁵⁾. حتى إن أحد حاملي لواء هذه الحركة تحدّى المُعَرَّبِينَ أسماء الكيماويات مُستبدلاً بأسماء

المُعَرَّبَات منها أسماء عربية الحسب والنسب — فاستبدل بالأكسجين لفظ المُصدىء وبالنتروجين والمُخصب وبالهدروجين وقال في الصوديوم وفي المَغْنِسيوم وفي الغرافيت وسمّى الكلور

(4) هي الأبيات المشهورة :

وسبغت كتاب الله لفظاً وغاية
وكيف أضيق اليوم عن وصف آله
أنا البحر في أعماقه الدرّ كامن

(5) يُعزى مثل هذا القول أيضاً إلى الشيخ حمزة فتح الله.

والبود
والبروم
واقترح لفظ الآجل
والطاسيل
والشاعل
واستعاض عن الغليسرين
والغلوكوز
والطرطير

وفي تُخطى أستاذنا الكبير، الذي درسنا البلاغة وأدب العربية في بعض مؤلفاته، سار زميل كبير لنا أطل الله بقاءه — وهو من فطاحل العربية دون منازع — فقال في

اللثانوم الحبيء

وفي اللوتشيوم

الباريسي

وفي عصر الميوسين (الجيولوجي) حقبة الراعية «العصر الحديث الوسيط».

وليس بعيداً عن هذه الحركة اليوم

القائلون في التلفزيون : المشوَّف أو المرناة

وفي الرادار : الكاشوَف

وفي الجيولوجية : عِلْمُ الهلك.

كما قيل في الأمس القريب

الجُماز في الترام

والمرواز في الباروميتر

والرّقين في الرّيال

وبالطبع، لم تكن العاميات، حتى مُصطلحات

أهل الصنعة منها، أمثال :

بُرغي وجمَلون وخرّدة

ودبّش ودزفة وشتلة

وصاج وصوبة وورشة.

لم تكن هذه أوفر حظاً من المُعَرَّبَات، ولنا إلى هذا عَودة.

ثالثاً : أثناء التجربة الأولى لم يقتصر دورنا على التلقّي السلبي الاستسلامي لأسباب الحضارة، بل كنا مشاركين فاعلين فيها ومُتفاعلين إيجابيين معها. فلقد كان لنا في كلِّ مجال من مجالات الحضارة علماء وباحثون — بل إن ناقلي التراث المُجابَه في بدء التجربة وخالقها كانوا في كثير من المجالات هم العلماء أنفسهم.

ثم، ولعلّه الأهم — على مدى التجربة الأولى لم نكن نُعاني تسلط انتداب أو كيد مُستعمر. كنا نحن السادة — سادة أنفسنا وسادة الإمبراطورية وسادة الحضارة العالمية. وما كنا نضعه لمكتشفاتنا من أسماء عربية أو ما اقتبسناه من مُعَرَّبَات، فَرَضناه حتى على اللغات العالمية — تشهد بذلك أسماء البروج والكثير من ألفاظ الفلك والكيمياء والجغرافيا والرياضيات في تلك اللغات.

لكننا جابهنّا التجربة الثانية عبيداً مغلوبين على أمرنا، رعايا المُحتَلِّين أو المُنتدبين أو المُستعمرين، تتحكّم فينا مشيئة المُحتَلِّ وسياسة المُنتدب ومصلحة المُستعمر.

وكيلا يكون الاحتلال والانتداب والاستعمار عسكرياً واقتصادياً فحسب بل ثقافياً ولغوياً أيضاً، حرص الأسياد على زرع الشك والرّيبية في نفوس أبناء الوطن العربيّ بأهم مقومات أصلتهم وحضارتهم — بلعنتهم.

فمنذ انطلاقة عصر النهضة وقبله جابهنّا في معظم أرجاء الوطن العربيّ عداء العثمانيين السافر للغة

العربية وإهمال تدرّسها والتركيز على اللغة التركيّة. ولم تتخلص العربية من كابوس التتريك إلا في أواخر الربع الأوّل من القرن العشرين.

ولم يكن المُحتَلِّون والمُستعمرون التوّالي أرحم من سابقهم في هذا المجال منذ بدأت حركة النهضة تُحبو وتُنشط. فقد تدخلوا في مسيرة نهضة اللغة العربية التي كانت قد أخذت تستوعب أسباب الحضارة الحديثة ومُتطلّباتها بنجاح في القاهرة وبيروت، فعطّلوا المسيرة بفرض اللغة الأجنبية كلغة تدريس.

وكانت جهود مدرسة الطب في القاهرة قد أخذت تُثمر غنيّ للعربية بآلاف المُصطلحات على مدى ستين عاماً⁽⁶⁾. ونجح مُدرّسوها بهمة ناظر الكلية الدكتور بيرون منذ تأسيسها في ترجمة قاموس القواميس الطبيّة لفابير وهو أضخم وأشمل معجم حضاريّ حينئذ، وتُحوي مُجلداته الثمانية جميع الاصطلاحات العلمية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى⁽⁷⁾.

ولم تكن جهود الرواد في الكلية السورية الانجيليّة (التي أصبحت فيما بعد الجامعة الامريكية) أقل روعة. فقد أسهمت إنجازات فان دايك وبوست وورثبات وبطرس البستاني والشدياق واليازجين في إنجاح تدريس العلوم الطبيّة فيها باللغة العربية بمنهج عصريّ ومُستوى راقٍ قرابة رُبع قرن⁽⁸⁾.

لكن الحركة أفشلت في مهدها في كلاً مركزيّ النهضة وتحوّل التعليم إلى اللغة الانكليزية. وكان في ذلك التحوّل بدء الدوّامة التي مازلنا ندور في حلقتها المُفرّغة دون أن نتمكن من تجاوزها. فما

(6) 1827 — 1887.

(7) حمل هذا القاموس اسم «قاموس الشذور الذهبية في المُصطلحات الطبيّة» ولم يُشر منه للعموم إلا حوالي مئة صفحة بإشراف الدكتور

أحمد عيسى عام 1910.

(8) من 1867 إلى 1890.

فَبِتَّ مَعْظَمُ جَامِعَاتِنَا السَّبْعِينَ فِي الْوَطْنِ الْعَرَبِيِّ تُدْرَسُ
مَوَادَّ الْعُلُومِ بِعَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ.
وَلَعَلَّهُ مِمَّا يَلْفُتُ أَنْ تَنْفِيذَ الْمُوَامَرَةَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ
فِي الْفَتْرَةِ نَفْسِهَا فِي كِلَا الْمَرْكَزَيْنِ. وَيَقِينِي أَنَّهُ لَوْ
اسْتَمَرَّتْ جُهُودُهُمَا لِتَضَافَرَ مَعَ جُهُودِ رِجَالِ الْمَعْهَدِ
الطَّبِيِّ فِي دَمَشَقٍ مِنْذَ 1919 لَكَانَتْ تَجْرِبَةُ الْعَرَبِيَّةِ
الثَّانِيَةِ فِي مُجَابَهَةِ أَلْفَافِ الْحَضَارَةِ أَنْجَحَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ
الْيَوْمَ بِكَثِيرٍ.

بين الفصحح والعامي

فِي سِيَاقِ «أَلْفَافِ الْحَضَارَةِ بَيْنَ الْفَصِيحِ
وَالْعَامِي» تَخْطُرُ لِي تَسْأُولَاتٌ مُتَعَدَّدَةٌ مِنْهَا :
أ : هَلْ يَوْجَدُ مِعْيَارٌ ثَابِتٌ يُقَاسُ بِهِ مَسْتَوَى الْكَلِمَةِ
وَمَرْتَبَتُهَا مِنْ حَيْثُ الْفَصَاحَةُ وَالْعَامِيَّةُ ؟
ب : هَلِ الْلَفْظُ الْفَصِيحُ لُغَوِيًّا فَصِيحٌ بِالضَّرُورَةِ
حَضَارِيًّا ؟ وَبِالتَّالِيِ هَلْ يُمَكِّنُ لِلْفِظِ الْفَصِيحِ لُغَوِيًّا أَنْ
يَكُونَ عَامِيًّا حَضَارِيًّا ؟
ج : هَلِ الْلَفْظُ الْعَامِيُّ لُغَوِيًّا قَاصِرٌ حَضَارِيًّا ؟ وَهَلِ
مَا يَمْنَعُ تَرْقِيَةَ الْلَفْظِ الْعَامِيِّ لُغَوِيًّا لِيُصْبِحَ فَصِيحًا لُغَوِيًّا
أَيْضًا ؟ ثُمَّ
د : أَيْنَ هُوَ مَوْقِعُ الْأَلْفَافِ الْحَضَارِيَّةِ الدَّخِيلَةِ (أَوْ
الْمُعْرَبَةِ بِنُطْقِهَا الْأَعْجَمِيِّ) فِي هَذَا التَّرَاتِبِ ؟
وَلِلْإِجَابَةِ عَنْ هَذِهِ التَّسْأُولَاتِ أَوْ بَعْضِهَا لَا بُدَّ
لَنَا مِنْ تَعْرِيفِ عَمَلَانِيٍّ لِمَا نَعْنِيهِ بِالْفِظَتِي «عَامِيٍّ» وَ
«فَصِيحٍ».

الفيروزآبادي في مادة «فصحح» يقول :

الْفَصْحُ وَالْفَصَاحَةُ : الْبَيَانُ
وَالْفَصْحُ الْأَعْجَمِيُّ (كَكْرَمَ) : تَكَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ وَفُهِمَ عَنْهُ.
وَالْمُعْجَمُ الْوَسِيطُ يُضَيِّفُ :
رَجُلٌ فَصِيحٌ : يُحَسِّنُ الْبَيَانَ وَيُمَيِّزُ جَيِّدَ
الْكَلَامِ مِنْ رَدِيئِهِ. وَكَلَامٌ فَصِيحٌ : سَلِيمٌ وَاضِحٌ
يُدْرِكُ السَّمْعَ حُسْنَهُ وَالْعَقْلَ دِقَّتَهُ، وَفِي تَعْرِيفِ
«الْبَيَانِ» يَقُولُ ابْنُ مَنْظُورٍ :

بَانَ الشَّيْءُ : اتَّضَحَ، وَأَبْتَهُ أَنَا : أَيِ أَوْضَحْتُهُ،
وَالْبَيَانُ : مَا يُبَيِّنُ بِهِ الشَّيْءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وَغَيْرِهَا.
نَسْتَخْلُصُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْفَصِيحَ مِنَ الْكَلَامِ هُوَ
السَّلِيمُ الْوَاضِحُ الَّذِي يُدْرِكُ السَّمْعَ حُسْنَهُ وَالْعَقْلَ
دِقَّتَهُ، وَالَّذِي تُبَيِّنُ بِدَلَالَتِهِ الْأَشْيَاءَ.

وَفِي تَعْرِيفِ «الْعَامِيِّ»، لَا زِيَادَةَ فِي الْمَعْجَمِ
الْعَرَبِيِّ عَلَى مَا يَرِدُ فِي الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ الَّذِي يَقُولُ :
الْعَامِيُّ : الْمَنْسُوبُ إِلَى الْعَامَّةِ — وَالْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ
خِلَافَ الْخَاصَّةِ. وَالْعَامِيُّ مِنَ الْكَلَامِ : مَا نَطَقَ بِهِ
الْعَامَّةُ عَلَى غَيْرِ سُنَنِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ.

بِهَذِهِ الْمَعَايِيرِ تَعَالَوْا نَتَسَاءَلُ : هَلِ الْلَفْظُ
الْفَصِيحُ لُغَوِيًّا فَصِيحٌ بِالضَّرُورَةِ حَضَارِيًّا ؟
وَلَتُسْتَعْرِضُ بَعْضَ الْأَلْفَافِ فِي هَذَا السِّيَاقِ :

الألْفَافُ تَأْمُورَةٌ

و سَمْسُقٌ

و حَيْصَلٌ

و جَابٌ

و ظَابٌ

كَلِمَاتٌ عَرَبِيَّةٌ أَصِيلَةٌ
وَفَصِيحَةٌ لُغَوِيًّا.

فَهَلِ هِيَ فَصِيحَةٌ بِمَعْنَى أَنَّهَا كَلَامٌ يُدْرِكُ
السَّمْعَ حُسْنَهُ وَالْعَقْلَ دِقَّتَهُ وَتُبَيِّنُ الْأَشْيَاءَ بِدَلَالَتِهِ ؟
أَلَيْسَتْ لَفْظَةً الْإِبْرِيْقِ لِلتَأْمُورَةِ

وَالْيَاسَمِينِ⁽⁹⁾ لِلْسَمْسُقِ

وَالْبَادَنْجَانِ⁽⁹⁾ لِلْحَيْصَلِ

وَالْمُعْرَةِ لِلْجَابِ

وَالْعَدِيلِ لِلظَّابِ (زَوْجِ

أُخْتِ الزَّوْجَةِ)

أَوْضَحَ وَأَبَيَّنَ أَوْ عَلَى الْأَقْلِ أَكْثَرَ قِيَمَانًا ؟

الْأَلْفَافُ مُصْدِيءٌ وَكَاشُوفٌ وَعِلْمُ الْمَلَكِ

وَمَصْنَعٌ وَمَهْبِطٌ وَكَهْتَرِبٌ

هِيَ كَلِمَاتٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهَا، مِنْ حَيْثُ

الْفَصَاحَةُ اللَّغَوِيَّةُ وَالْمَعْنَى الْمُعْجَمِيَّةُ أَيْضًا، لِلْأَكْسَجِينِ

(9) «القاموس المحيط» يورد هاتين اللفظتين في شرح «سمسق» و «حصيل» لكنه يهملهما في موقعهما.

والرّادار والجُيولوجية. والأنود والكاثود والإلكترون لكن هل من وُضوحٍ في قَوْلنا :
نُقل المريضُ إلى غرفةِ المُصدىءِ أو إستخدم المُتسلِّقانِ قِنَاعَ المُصدىءِ قبلَ الوُصولِ إلى قِمةِ إفرست، أو إنَ الدمَ يُصدأُ في الرئتين؟ وهو في الواقعِ يُوكسِج ولا يُوكسِد.
وإن قلنا المُصدىءِ في الأكسجين الثنائي ذرةِ الجُزَيءِ، فماذا نقولُ في نظيره الثلاثي الذرات الأكثرِ إصدائيَّةً؟

«كاشوف»، وزان فاعول، فصيحَةٌ لغويًّا ولكنها مُقابل «رادار» قاصِرة، لأن الرادار هو كاشوفٌ مُحَدَّدٌ بَعْدَ راديوي. والكواشيف اليوم لا تَقْتَصِرُ على الرادار، فهناك :
الليدار الكاشوف ومُحدَّدُ المدى الضوئي،
واللادار الكاشوف ومُحدَّدُ المدى الليزري،
واللويلار الكاشوف ومُحدَّدُ المدى الدوبلري
الليزري، والأوبدار والسُونار وغيرُها. وكلها «كاشوفاتٌ» لها ميزاتها ووسائلها ودلائلها المُختلفة.

ثمَّ إنَّ لفظة رادار وأحواتها تتألف كما هو معلوم من أوائلات أحرف الألفاظ التي عُرِفَتْ بها تلك المُصطلحات — وهي انتقلت إلى مُختلف لغات العالم دونَ النَّظرِ إلى الألفاظ التي اشتقت من أوائلاتها أصلاً.

لفظة «كاشوف» أرى أنها على فصاحتها اللغوية قاصِرةٌ في الدلالةِ علي مدلولها من حيث دِقَّةِ التحديد والبيان. وليس عِلْمُ الهلك في هذا المجال بالمُصطلح الأفضَل !

الفيروزآبادي يقول في «الهلك» ما يلي :
الهلك (مُحرَّكة) : السُّنُونُ الجَدْبَة، الواحدة بهاء، كهلكات، وما بيِّنَ كُلُّ أرضٍ إلى التي تحتها إلى الأرض السابعة، وجيفةُ الشيءِ الهالكِ وما بين أعلى الجبلِ وأسفلهِ وهواءٌ ما بين كلِّ شيئين، والشيءُ الذي يهوي ويسقط.

أترانا نقول إذا :

عِلْمُ الهلك المائي في جيولوجية الماء
وعِلْمُ الهلك الاقتصادي في الجيولوجية الاقتصادية
وعِلْمُ الهلك الهندسي في الجيولوجية الهندسية
وعِلْمُ الهلك البيئي في جيولوجية البيئة
ونقول التاريخ الهلكي

ومقياس الزمن الهلكي
وعلم المحيطات الهلكي... الخ
وعلى ما في كلِّ ذلك من شتاتٍ وبُعْدٍ عن الدقة والوضوح؟ أتركُ الجوابَ للجيولوجيين !
«مَصْعَد» و «مَهْبِط» لفظتان فصيحتان، وزان مَفْعَلٌ ومَفْعِلٌ، لمكائني الصعود والهبوط. وقد كانتا فصيحتين حضاريًّا حين تبناهما مجمع اللغة العربيَّة مُقابل «أنود» و «كاثود» أيَّامَ كان مفهومها مقصوراً على التحليل الكهربائي.

لكن بظهور الصِّمامات الإلكترونيَّة على أنواعها — حيث الكاثود هو مَبْعَثُ الإلكترونيات — ما عادَ من الفصيح بياناً ودلاليًّا، وبالتالي حضاريًّا، أن يُسمَّى مَبْعَثُ الإلكترونيات «مهبطاً». وكان من الفصاحة الحضاريَّة أن عاد مجمعُ اللُّغة العربيَّة عن اللفظتين إلى المُعربَّتين.

منذ نصف قرن تعلَّمنا أن الذرة تتألف من ثلاثة أنواعٍ من الجُسيمات، سمَّيت ابتدائيةً، أو أوَّيل كما فُصِّحَتْ لاحقاً، مقابل «بروتون» ومُتعادلة مقابل «نيوترون» وكهَّيرب مُقابل «إلكترون»

فتحقَّق لنا فيها الفصاحة اللغوية والفصاحة الحضاريَّة. لكن وأنا مُدرِّسٌ منذ حوالي رُبْعِ قرنٍ كُنَّا نَعْلَمُ أن هذه الجُسيمات أكثرُ من سِتَّة، وكُنْتُ أقرأ في المجلَّات العلميَّة أنها سَبْعَة عشر. اليوم يقولون إنها أكثرُ من سَبْعَة وثلاثين مُوزَّعةً في أربعِ عَشْرَةَ قِةً — وهي إلى مزيد.

وهكذا ما عادَ الأوَّيلُ أوَّيلاً ولا ابتدائيةً، ولا الكهَّيرب أدقَّ الجُسيمات، ولا المتعادلة فعلاً مُتعادلة، فصاحت الفصاحة الحضارية، فصاحةُ الوضوح ودِقَّةُ

الألفاظ «طاقة» و «قدرة» و «وسع» و «عزم»
ألفاظٌ فصيحة. ويُمكن للكاتب في موضوعٍ أدبي
أن يُبدل فيما بينها تلافياً للتكرار أو عملاً بسنّة
التنوع التردّفي في الأساليب البلاغية.

لكنّ هذه الألفاظ اتّخذت في مجالات العلم
وبين أهله مفاهيم متميزة —

لفظة قُوّة في غير مقابل force
(ما يؤثر في جسم فيُغيّر حالة سكّونه أو حركته) :

عامية
ولفظة طاقة في غير مقابل energy

(القدرة على القيام بشغلٍ ما) : عامية
ولفظة وسع في غير مقابل capacity

(سعة تخزين) : عامية
ولفظة عزم في غير مقابل moment

(المقدرة على إحداث دوران حول محور...) : عامية
كذلك فإنّ لفظة «حشرة» في تعريف حيوان

لبون — كما تردّ في معجم نُجله — عامية.
ولفظة «انصهار» مُقابل fusion في مجال

التفاعلات النووية، كما رأيتها مُستخدمة في مؤلّف
فيزيائي يدرّس في ثانويات بلدٍ عربي، وكما رأيتها

مُستخدمة في معجم تقاني جليل حديث، هي أيضاً
لفظة عامية حضارية، وإن كانت فصيحة لغويّاً.

وأنتقل دون الإفاضة في موضوع العاميات
الحضارية إلى تساؤلي الثاني :

هل اللفظ العامي لغويّاً قاصراً حضاريّاً ؟
منطق علماء التطور اللغوي يُجيب بالنفي.

فلولا أنّ هذه الألفاظ نجحت في تأدية مفاهيم
حضارية مُحددة تتصلّ بشؤون الناس اليومية لكانت

ماتت واندرت — إذ لا تُراث مكتوباً يحفظها.
صاحب «محيط المحيط» له فضلٌ كبير، إضافةً

إلى مآثره المتعددة، في أنّه أدّرج في «محيطه»⁽¹⁰⁾
الكثير من الألفاظ العامية أو التي تُستخدَم عاميةً في

معنى مُعيّن، وقد قلبت صفحات هذا المعجم على
عجل لأختار بعضاً من عامياته، وها هي ذي :

الدلالة، وعدنا نجد أنّ
بروتون والكثرون ونيوترون

أفصح في التعامل مع أجزاء الدّرة الأخرى
كالليزونات بأنواعه الخمسة

والپوزترون والطاوون والميون والهادرون
والكاوون والنيوترونينو

والكواركات بأنواعها الستة
والبوزون والهاپيرون... الخ.

العربُ بفصاحتهم الفطرية وسليقتهم تعودوا
أن يفتحوا لفظةً من لفظتين أو أكثر — ففتحوا

بَسَمَل بمعنى : قال بسم الله الرحمن الرحيم أو كتبها
وحوّقل بمعنى : قال لاحول ولا قوة إلا بالله

وسبّح بمعنى : قال سبحان الله
ونحّت المعاصرون أو ركبوا مزجياً

برمائي من برّي ومائي
وكهروضوي من كهربائي وضوي

وحلمهة من الحل أو التحليل بالماء
واجتمعت لمثل هذه الألفاظ الفصاحتان :

لكنك في مقيساتٍ عليّ سنّتها تفتقد فصاحة البيان
والدلالة أحياناً. فهل أفصح الذين قالوا سابقاً

دمعز بمعنى : أدام الله عزك
أو مشكّن بمعنى : ما شاء الله كان

أو طلبق بمعنى : أطال الله بقاءك...؟
أو الذين قالوا لاحقاً

نزور بمعنى : نزع الورق
أو حرّصم بمعنى : حرر من الصمغ

أو زهّرج بمعنى : أزال الهدروجين
أو حلّكحة بمعنى : الحلّ أو التحليل بالكحول

أو صلّكلة بمعنى : استئصال الكلوة ؟
أنا ميّال إلى الإجابة بالنفي.

اللفظ الفصيح لغويّاً ليس فصيحاً بالضرورة
حضاريّاً، بل إنه قد يكون حتىّ عامياً — وفي هذا

السياق أعرضُ بعض الأمثلة :

(10) «محيط المحيط» للمعلم بطرس البستاني.

بائكة	بمعنى	مخزن واسع	ولا غرابة في هذه الترقية، فهي متعارفة
بريمة	بمعنى	آلة يُثقب بها	معجمياً في كل اللغات. فمئات الألفاظ التي ظهرت
جملون	بمعنى	سقف مُحَدَّب	في أولى طبقات مُعجمي أكسفورد الكبير البريطاني
حوش	بمعنى	فناء الدار	ووبستر الدولي الأمريكي ⁽¹¹⁾ ، وصنفت عاميات،
خابور	بمعنى	مِسْمَار الخشب	ارتقت إلى رتبة الفصحاح في طبقات تالية.
خوش	بمعنى	عمق الثقب لِيَتَسَاطَحَ رأسُ المسمار مع السطح	ولعل من المناسب في هذا السياق، سياق العامي الفصيح، إيراد نص ورد في كتاب «مشكلات اللغة العربية» للأستاذ محمود تيمور. يقول الأستاذ تيمور ما فحواه :
دَبْش	بمعنى	صغار الحجارة وسقطها	الشعب يقول : عوامة في عائمة
دَلَف	بمعنى	قَطْر السقف أو وَكف	وسواق في سائق
رصيد	بمعنى	المُتَبَقِي من حساب مالي	ومرسال في رسول
زردية	بمعنى	آلة شدُّ وِزْرَد (زرَد أيضاً عامية بهذا المعنى)	ويقولون : حوش المال
سُنْبِك	بمعنى	ما تُحْرَز به الصفائح	ومَلَخ ذِراعَه
شئلة	بمعنى	ما قَلَع من النبات لِيُغْرَس في مكان آخر	وسَيَّب الدواب
صاح	بمعنى	صفائح الحديد وطبقِ الخبز المُحَدَّب	وبرطل المُرتشي
صوبة	بمعنى	مدفأة أو دفيئة زجاجية	وشور لزميله
قرف	بمعنى	اشمأز	ويقولون : خِلقة الشخص بمعنى طبعه
كسَم	بمعنى	الهيئة للزري	بمعنى حليها
مَحْصَلَة	بمعنى	ناتج	بمعنى نُتفة منه بين إصبعين
مكوك	بمعنى	وَشِيعَة آلة الخياطة	وَمُ الغسيل بمعنى إحدى مرّاته
ورشة	بمعنى	جماعة الفعلة يشتغلون	فيأتي الكثرة من حَمَلَة الأفلام يُفصِّحونها بما لا يمتاز عنها فصاحة — فما أحرانا أن نفتح الباب
وكلها مما لا يُعوزُه البَيان ولا المفهومية ولا دقة الدلالة. فهل ما يمنع ترقية هذه الألفاظ لغوياً لتصبح فصيحة لغوياً أيضاً ؟			على مصراعيه مثل هذه التعابير تُثري الفصحى وتكسيها مزيداً من الدقة والتعبير. لقد جنت على مثل هذه الكلمات تسميتها بالألفاظ العامية لاقتصار استعمالها على ألسنة العوام، واختصاصها بلغة التخاطب والحديث. فلنعرف لهذه الألفاظ حقها في

(11) من الألفاظ التي كانت عامية وارتقت إلى الفصحاح في هذا المعجم :

banter بمعنى يرح و sham بمعنى صُوري و mob بمعنى غوغاء و finalize أنهى
بينما ظلت في رتبة العاميات ألفاظ مثل
duds بمعنى ملابس و dubs بمعنى قبضة اليد.

العربية وتَجَرَّ بها أقلامُ الكرامِ الكاتبين دُونَ تَحْرِيزِ
وَلْتَسَمَّهَا العاميةُ الفصحى (12) !

وأخيراً آتِي إلى تساؤلي الثالث حول مَوْقع
الألفاظ الحضارية الدَّخيلة بين الفصحى والعامية.
وهي احتلَّت سابقاً وتحتلُّ حالياً وستحتلُّ مُستقبلاً
حِيزاً مرموقاً في دُنيا ألفاظ الحضارة في اللغة العربية.
هذا الواقعُ لا أراه مُختلفاً نوعاً، وإن اختلف
كَمَا، عن واقع الألفاظ الحضارية في مُجابهتنا
الحضارية الأولى.

فالألفاظ التي اهتممتها العربية قبل وبعد
صدْر الاسلام، حتَّى لكانها غيرَ دَخيلة، مثل :
أستاذ وبخور وبلور وتخت
ودواة وسدّ وسيف وصبا
وصراط وفتيلة وفرن وقفص
وكرسی وكوفية وناطور
وهاون ويم

إعتبرت فصيحةً حضارياً وفصيحةً لغوياً.

حتي تلك الدخيلات التي ظلت مسحة
العجمة بينة فيها مثل :

إبريسم وإستبرق وإقليم
وديباج ودرفس وزنجبيل
وفنار ومُصنطكى وياسمين

شفع لها حضورها التراثي أو الأدبي أو
الحياتي الحضاري بين الناس، فلم يعترض أحدٌ على
فصاحتها.

أما الدخيلات الحضارية التي استُخدمت في
نُطْقٍ محدودة مثل :

إسطقس وأنولوطيقا

وغنطازيا وهيولى

أو أشق وبطرايون وبوريطس

وجمشت وحلقيدون ودهنج

ورهبج وزرقون ومرقشيتا في الكيمياء.

أو أورطي وبريطون وبنقراس

وقرنية وقولون ومساريقي في الطب.

أو إطريفيل وبرثوف وبوقيصا وجنجل

وشقاقل وطرخشقون وفريون في النبات.

أو إسقنقور وبطلينوس ودلفين وسفنج

وطرستوج وقبيون ووشق في الحيوان.

فقد ظلت فوق التصنيف الفصاحي،

محصورة في دفاتر الفلاسفة والكيمائيين وعلماء

النبات والحيوان وحلقاتهم. وكونها خارج صلب

اللغة فإنها لم تُضربها بل أثرت في مجالاتها

واسعة أمام العلم وأهله من ذوي الاختصاص.

ونحن اليوم أمام موقفٍ مماثل في مُجابهة

الألفاظ الحضارية الدخيلة.

فالتعريب أمر واقع لا خيار لنا فيه أمام أسماء

المركبات الكيماوية وأسماء العقاقير التي تتجاوز

المليون، وفي مجابهة أسماء النباتات والحيوانات

وفصائلها وطوائفها وأنواعها وأفرادها التي تتجاوز

المليونين، وفي معالجة المُسميات الهندسية

والإلكترونية التي تُقارب هذا العدد أيضاً، وكلها

مُستجرة في التدفق على العالم الحضاري، الذي تُريد

مواكبته، دُونَ انقطاع.

إن الذين يقفون في وجه التعريب في نطاق

هذه المُجابهة يُغالطون أنفسهم ويُغالطون الواقع.

(12) اكتشفت لاحقاً أن هذا الفصل من الكتاب وارد بعنوان «العامية... الفصحى» في العدد الثالث عشر من مجلة المجمع.

كما إن الموقف المتشدد المتحرّص ضدّ التوسّع في التعريب الذي فرضته الجامع منذ جيل أو جيلين⁽¹³⁾ نجده اليوم يلينُ أمامَ حقائق الأمر الواقع. تشهّد بذلك تصريحات سيادة شيخنا رئيس الجمع الدكتور إبراهيم مذكور⁽¹⁴⁾ وسيادة رئيس جمع اللغة العربية الأردني زميلنا الدكتور عبد الكريم خليفة⁽¹⁵⁾ أطل الله بقاءهما وحضرة المناضل اللغوي الفدّ المغفور له الأستاذ عباس حسن⁽¹⁶⁾ وكلّهما تقولُ بإفساح المجال للتعريب في هذه الحالات دون عائق أو اشتراط.

وفي تعاملنا مع الألفاظ الدخيلة في عصرنا الحاضر أرى أن تفيّد من خبرة الأسلاف في هذا المجال.

فهناك ألفاظ دخيلة استقرّت في اللغة أو كادت ولا مبرّر لأن تتجاهلها معاجنا اللغوية اليوم — مثل :

بارود بالة بُرغي

بَلْطَة جُمْرُك سِقَالَة
غاز طاولة قَمْرَة
وهُنالك ألفاظُ فرضتْ نَفْسَهَا على شؤون حياتنا الحضاريّة فلا يُمكننا تجاهلها — وبالتالي فلا يجوزُ لِلْعَتْنَا، مِرآةَ حياتنا، تجاهلها أيضاً. من هذه الدخيلات مثلاً :

أمبير أوتوماتي أوم
بارومتر باليه يَسْتَرَة
بطارية ترانزستور ترموستات
تلفزيون جيولوجية رادار
راديو كلورة كيلومتر
ليزر نترات هورمون الخ

وقد نَحْتَلِفُ في حَجْم هذا العدد من الدخيلات، ولكنه حتماً لا يتجاوزُ بضعة آلاف. هذا العدد من الدخيلات الحضاريّة إن نَحْنُ قَبْلِنَاهُ اليومَ، فإنّ باب استبداله يبقى مفتوحاً — تماماً كما استبدل الأقدمون:

(13) منذ حوالي نصف قرن أصدر جمع اللغة العربيّة قراراً في التعريب يقول : «يجوز الجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجميّة، عند الضرورة، على طريقة العرب في تعريبهم».

وقد شرح الشيخ أحمد الاسكندري هذا القرار المتحرّص باسم الجمع فقال «المراد بالعرب — في القرار — العرب الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم، وهم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الهجري الثاني وأهل البدو إلى أواسط القرن الرابع». مجلة مجمع اللغة العربية، ص 206، جزء 11.

(14) يقول سيادته ما فحواه : «وللعالم كامل الحرية في اختيار اللفظ الذي يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية فيستمدّه من الفصحى أو من العامية، ويستعين عليه باللغات الحية أو الميتة. وقد يشكو من قصور اللغة وعجزها عن أداء ما يريد فيلجأ إلى وسائل أخرى منها التعريب. وقد رسم الجمع للتعريب ضوابط تنظمه، فيعرب خاصة ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس (كالأكسجين والإنزيم والايون والالكترون) وما يدل على تصنيف عام من أسماء الأجناس والأنواع في النبات والحيوان وسلسلة المواد المتشابهة كيميائياً وما ينسب إلى علم أو شخص أو اسم مكان».

مجلة مجمع اللغة العربية ص 7 و 10، جزء 18. وفي مكان آخر يقول سيادته : العلم هو تراث الانسانية جمعاء، يجب أن يُفسح مجال التبادل فيه، وأن تُيسر سبله، ومن وسائل التيسير أن يُسمح بتبادل الألفاظ كما تُتبادل الأفكار والمعاني. «مجلة مجمع اللغة العربية، ص 148، جزء 11».

(15) يقول سيادته : «إن التحفظات والتحديدات والمناقشات المطولة حول التعريب اللفظي لا مُبرر لها — وأصحاب هذه الاعتراضات يسهمون من حيث لا يدرون في حملة المُعادين للغة العربية».

عبد الكريم خليفة، «اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث» عمان 1987.

(16) في تعليقه على موضوع التعريب يقول الأستاذ عباس حسن : «إن الترام قد كاد عهدّه ينقضي قبل أن يضع إجماع لأجزائه أسماء، وقد تنقضى السيارة قبل أن تعرف أسماء أجزائها الرئيسية. وإنّي لأرى الآن نقف أمام المخترعات الحديثة ونكلف الجمع وضع ألفاظ عربية لها — فإننا حينئذٍ نكلف أعضاءه عُسراً. فأنا لا أرى داعياً لهذا التزمّت من ضرورة اختيار ألفاظ عربيّة. إن بعض المصطلحات قد تتغير قبل أن نصلح لها على أسماء عربية. مجلة مجمع اللغة العربية، ص 155 جزء 11».

الحساب بالأرثمطيقا
وعلم الفلك بالأسترونوميا
والهندسة بالجيومطرى
والبلاغة (أو الخطابة) بالريتوريقا
وكما وُفق الرواد في العصر الحاضر باستبدال
بوسطة ب بريد
وتكسين⁽¹⁷⁾ ب ذيفان
وسيارة ب أوتوموبيل
وشاحنة ب كميون
وشرطة ب بوليس
وصفاق ب بريتون
وفقر الدم ب أنيميا
وفندق ب أوتيل... وغيرها كثير،
حتى وإن ظلت الدخيلة تُنافس ما يُتخفنا به
الغواصون من الدرر التي نستبدلها بها، في مثل :

بنك	ومصرف
تلفون	وهاتف
توربين	وعنفة
زُبْرُك	ونابض
كليشيه	وروسم
مكروسكوب	ومجهر
مكروب	وجرثومة

أما الدخيلات البعيدة عن شؤون الحياة اليومية
والغريبة إلا عن استخدام ذوي الاختصاص العالي
فإنها ستبقى ألقاظاً حضارية ضمن مخاير العلماء

ومساقات المتخصصين — ولا خوف على اللغة منها
لأنها لن تَدْخُل صلب اللغة ولا معاجمها. والبرهان
أن ما تورده أوسع المعاجم اللغوية العالمية من ملايين
هذه الألفاظ لا يتجاوز بضعة عشرات الآلاف كما في
معجم ويستر الدولي الثالث غير المختصر.

اللفظ الحضاري من حيث إنه واضح الدلالة
ودقيق التعبير في مجال اختصاصه يُؤلف رتبة متميزة
تتجاوز الفصح أو العامي بالمفهوم التقليدي.
والألفاظ الحضارية الدخيلة — السابق منها
الذي هضمته العربية، واللاحق، الذي تقبله اللغة
بالاستخدام والشيوع والعربية السليقية، هي جزء
مهم من اللغة يُعشها ويثرها، كما إن ملحقها المعرب
ينطقه لاستخدام العلماء يجعلها قادرة على استيعاب
العلوم المتطورة الحديثة ويُقرّبها إلى لغة العلم العالمية،
ويَسُدُّ الطريق على معرقل مسيرة تعريب التعليم في
مختلف مراحلها.

لأننا مهما أغنينا لغتنا بالألفاظ الحضارية كما
وكيفا، فإنه لا يتجاوز كونه غنى في طول اللغة
وعرضها — يعنى غنى سطحياً.

والغنى الصحيح، الغنى العمقي، لا يتأتى إلا
حين تُصبح العربية لغة المتعلم والعالم، وإلا باستنبات
العلم بيئياً عندنا — لتصبح اللغة العربية لا لغة التعليم
في كافة مراحلها فقط، بل أيضاً لغة البحث العلمي
والتأليف العلمي والإبداع العلمي، وهذا بحث
يطول وأمل يُرتجى، والله الموفق.

(17) كان ابن سينا قد عَرَبها «طُخْشِين».

المراجع

- أبو سعد، أحمد «قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية» مكتبة لبنان، بيروت 1987.
- البستاني، بطرس «محيط المحيط» مكتبة لبنان، 1977.
- بن عبد الله، عبد العزيز «نحو تفصيح العامية» الرباط، 1972.
- تيمور، محمود «مشكلات اللغة العربية»، القاهرة.
- خليفة، عبد الكريم «اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث» عمان 1987.
- السيد، داود حلمي «المعجم الانكليزي بين الماضي والحاضر»، جامعة الكويت، 1978.
- شرف، محمد «معجم العلوم الطبية والطبيعية» القاهرة، 1928.
- الشيبان، جمال الدين «تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية»، دار الفكر العربي، القاهرة 1950.
- عطيه، رشيد «الدليل إلى مرادف العامي والدخيل».
- غالب، إدوار «الموسوعة في علوم الطبيعة»، المكتبة الشرقية، بيروت 1988.
- مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الأجزاء 11، 12، 18.
- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج 23 - 24.
- مجمع اللغة العربية، «المعجم الوسيط»، الطبعة الثالثة، القاهرة.
- The Barnhart Dictionary of New English 1963 - 1972.
C.L. Barnhart Inc. New York, 1973.
- The Second Barnhart Dictionary of New English,
Barnhart Books New York, 1980.
- The Longman Register of New Words, Longman, London 1989.
- Webster's Third New International Dictionary - Unabridged G and C Merriam Co. Springfield 1976.